مجلة
المجمع العلمي العربي

١ نيسان سنة ١٩٥٤ ٢٧ شهر رجب سنة ١٣٧٣

تفكيرنا الشعري

اجتمع في ايلول الماضي في جامعة « پرنستون » وهي واقعة في ولاية « نيوجرسي » في الولايات المتحدة رجال مؤتمر الثقافة الاسلامية ، فرحّب بهم عميد أساتذة الجامعة في قاعة مشهورة وأتى على تاريخ هذه القاعة في شيء من الاختصار ، ثم صعد المنبر أستاذ فاضل من الشرق ورحّب باللغة العربية ، وقد كان الأستاذ الموما اليه قد وصل الى « پرنستون » قبل ساعات من اجتماع المؤتمر ولم يك يعلم أنه سيكون له كلمة ترحيب ، فلما استقرّ به المنبر قال : لما وصلت الى مطار « نيويورك » أبلغت أني في جملة الخطباء فصعقت ...

ان هذا الأستاذ يرتجل الكلام من خمس وعشرين سنة فهو مدرّب على مثل هذا الارتجال ولا يصعب عليه أن يقول كلمة لا تستغرق خمس دقائق وقد قالها ولم يظهر عليه أثر الصعق ، ولكنّ استعمال الألفاظ التي تشتمل على كثير من المبالغات انما هو من خصائصنا معاشر أهل الشرق ، يقال في لغتنا : صعق كسمع : غشي عليه ، ومن مشتقات هذه المادة : الصاعقة ، ومن معاني الصاعقة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الموت وكل عذاب مهلك وصيحة العذاب والمحراق الذي بيد الملك سائق السحاب ولا يأتي على شيء الا أحرقه ، أو نار تسقط من السماء ...

فلينظر القارئ في المعاني المختلفة التي تدلُّ عليها هذه المادة ومشتقاتها وحسب هذه المعاني أن يدخل فيها الموت أو العذاب أو نار السماء حتى نشعر بشدتها فاذا كان أحدنا يصعق أي يغشى عليه من أجل ارتجال كلمة لا تستغرق دقيقتين أو ثلاث دقائق وهو مدرّب على الارتجال فكيف تكون حالته اذا نزلت به نازلة من نوازل الدهر وأراد الافصاح عنها ، بأي لفظ يفصح عن هذه النازلة اذا أصيب بفقد عزيز أو بمرض عضال أو بضياع ماله أو اذا أصيب بوطنه أو بأمثال هذه الشدائد .

لا شك في أن اللغة في مثل هذه الحال تعجز عن هديه الى مادة من موادّها يعرب بها عن فكره أو شعوره أو عاطفته فاذا كان أحدنا يعرب عن مفاجأة بسيطة بقوله : صعقت ، فبأي مادة يعرب عن هذه الأمور التي أتيت على ذكرها ، من هذا يتبين لنا أنا في كثير من الأحوال نعطي المعاني أكثر مما تستحق من الألفاظ ، وما هي نتيجة هذا العطاء ، من نتائجه أن الألفاظ تنخر وتبلى على مرّ السنين فلا يبقى لها أثر في الأذهان والقلوب وهذا ما يحمل بعض أكابر الشعراء والكتاب من عصر الى آخر على تحويل ألفاظ من معنى الى معنى حتى يجدوا فيها عوضاً عن الألفاظ النخرة البالية ، ولولا هذه التحويلات في اللغة لما وجد أحدنا سبيلاً الى التعبير عن فكر أو شعور بلفظ يصوّر هذا الفكر والشعور في حقيقة صورتيهما دون زيادة أو نقصان .

من أيام استأنفت التدريس في كلية الآداب وأذكر أني نقلت في فاتحة المحاضرات قول أحد العلماء : اليد ! اللغة ! هذه هي البشرية ، وقد فصّل هذا العالم رأيه بعض التفصيل فقال :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ان الذي طبع به آخر أفق من آفاق الحيوان وأول أفق من آفاق البشر انما هو اختراع اليد واللغة ، فاليد عنوان تقدم المنطق العملي ، واللغة عنوان تقدم المنطق العقلي .

فاللغة على نحو ما قرّره علماؤها في هذا العصر انما هي أغرب ما وصلت اليه البشرية من الاختراعات في أطوارها واذا كنت لا أريد الكلام على مهمتها وعملها في نموّ العقل ، أو على علائق الفرد والجماعة في إنشاء هذه الآلة الثمينة وفي تحسينها ، فأنا أحب الاستشهاد في هذا الباب بورقة تكاد تكون أبلغ ما كتب في الدلالة على منزلة الألفاظ ، قال كاتب هذه الورقة :

« قلت لكم إنني أحب معجمات اللغة ، فأنا لا أحبها لمجرّد فائدتها العظيمة ، ولكني أحبها لأنها تحتوي على شيء حسن ، نعم ، انظر الى معجم من المعجمات ، وتصور أنك ترى روح وطننا كله في هذا المعجم ، ليتصور ذهنك أن في هذه الأوراق التي يبلغ عددها ألف ورقة عبقرية بلادنا وطبيعتها ، ليتصور ذهنك أن فيها أفكارنا وأفكار أجدادنا ، أفراحنا وأفراحهم ، أعمالنا وأعمالهم ، آلامنا وآلامهم ، ليخطر ببالك أن في هذا المعجم آثار الحياة العامة وحياة الدور والمنازل ، آثار الذين نشقوا الهواء الصالح ، وشموا النسيم العليل الذي نشمه اليوم ، ليخطر ببالك أن كل كلمة من كلمات المعجم يقابلها فكر من الأفكار كان فكر طائفة من البشر لا يعلم عديدهم ، وعاطفة من العواطف كانت عاطفة جمهور من الناس لا يحصى مقدارهم ، ليهجس في صدرك أن كل هذه الكلمات المجموعة انما هي لحم الوطن والبشرية ودمها وروحها » .

فاذا كان للألفاظ هذه المنزلة ، إذا كانت الألفاظ لحم الوطن والبشرية ودمها وروحها ، أفلا يجدر بنا أن نعطيها مقامها في الكلام فلا نجعل لأفكارنا منها نصيباً أكثر من استحقاقها ، أو حظاً أقل من هذا الاستحقاق ، لقد كثر في أدبنا في القديم والحديث الغلوّ في التعبير فنحن نلبس المعاني لباساً أوسع

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

منها فكأننا لا ندرك الفكرة ادراكاً واضحاً الا اذا انتفخت ولهذا نجد في كثير من أقوال رجالات الشرق في أيامنا هذه نمطاً من هذه الانتفاخات ، واذا كان لهذا النمط أثر فان أثره الوحيد انما هو إضعاف الفكرة المخبوءة من وراء الألفاظ الضخمة بحيث لا يبقى لهذه الفكرة قيمة .

ونحن اذا قابلنا بين عقليتنا في هذا العصر وبين عقليات الأمم التي كانت عنايتها بالمادة أشد من عنايتها باللغة الشعرية وجدنا لهذه الأمم عقلية ميكانيكية ، بمعنى هذا أنها لا تؤمن الاّ بالأفكار المصورة على حقيقتها دون شيء من الضخامة ، فاذا صورنا لها هذه الأفكار في صورة أضخم من الأفكار نفسها فهي لا تفهم منها شيئاً ، ولهذا يقع كثير من سوء التفاهم بين عقلية الشرق وبين العقليات الممتدة من وراء البحار ، ولا شك في أن تلك العقليات البعيدة عنا لغة شعرية مثلنا ولكن أصحابها يفرّقون في حياتهم العامة بين اللغة الشعرية وبين لغة الأمر الواقع ، أما نحن فلا نزال نقحم الصور الشعرية في كثير من مخاطباتنا أي في حياتنا العامة ، وهذا الاقحام يضعف افكارنا وقد تكون حقاً فنجعلها باطلاً .

واللجوء الى لغة الشعر في المخاطبات العامة من خصائص الشعوب السامية فبين هذه الشعوب وبين الشعوب الآرية اختلاف في تصوير الأفكار ، فالفكر مثلاً في العبري لا يستطيع أن يتجرّد من الصورة المادية التي تستره وتغطيه ولذلك فإنا نجد لغة التوراة لغة شعرية الا انها تعجز عن بيان الفكرة المجردة فالذهن في الأمم السامية عنيد فانه يحتفظ بالصورة ويحرص على طابع الانفعال المادي ، أما الذهن في الشعوب الآرية فانه أمرن وألين فهو ينسلخ من المادة ويرتفع الى تصوير الفكرة المجردة وادراكها ولعلنا نجد في هذا التباين السبب في شيوع الفلسفة في الجنس الآري وانقطاعها في الشعوب السامية لأن التجريد من خصائص الفلسفة ، والشعوب السامية أصحاب خيال فهم بعيدون عن التجريد .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

على أن هذا الكلام لا يصح اطلاقه فان اللغة العربية اذا كانت لغة شعرية فقد كانت أيضاً لغة فلسفة واجتماع ، وحسبنا أن نذكر ابن رشد وابن سينا والغزالي وابن خلدون حتى ندرك صواب هذا القول ، إلا ان اللغة الشعرية غالبة على تفكيرنا ولهذا يعجل الفخر والبلى على ألفاظنا لأن هذه الألفاظ الشعرية نضعها في كثير من المواطن في غير مواضعها فيضعف تأثيرها على الأيام حتى تموت .

وكما يقضي تفكيرنا الشعري على طائفة من الألفاظ فقد يضعف كثيراً من أفكارنا ولا سيما اذا خاطبنا أمماً تختلف مقادير عقولها عن مقادير عقولنا فبدلاً من أن نعرض على هذه الأمم أفكارنا بسيطة مجردة فانا نلبسها في بعض الأحيان ملابس قد تكون ضيقة عنها أو واسعة عليها فنخرج بها عن طبيعتها ونجعلها أضحوكة ، ولو جاز لي أن أستشهد ببعض أقوال منسوبة الى طائفة من رجالات الشرق فيها غلو كثير ومبالغة كثيرة لأتيت على طائفة من هذه الأقوال الضخمة التي تضيع فيها الفكرة المحبوءة تحتها أو يضعف تأثيرها .

ولا يستبطن أحد من قولي أني أهجم على لغة الشعر وانما أريد أن أجعل تناسباً بين لفظنا وتفكيرنا فلا يغلب لفظ شعري على فكر لا يستحق هذا اللفظ ولا يضعف لفظ شعري عن فكر يستحق مثل هذا اللفظ ، واذا رجعنا الى خطب رجالنا في صدر الاسلام ولا سيما خطب الصحابة وبعض القواد والعمال وجدنا تناسباً عظيماً بين تفكير أولئك الرجال العظماء وبين لغتهم ، فالبساطة غالبة على هذا التفكير وهذه اللغة ، ولا ريب في أن البساطة إنما هي عنوان القوة فقد كانوا أقوياء فلم يحتاجوا الى التغني بقوتهم وانما عرضوا قوتهم في حقائق معارضها دون شيء من الانتفاخ فعملت عملها في القلوب ولا يحتاج الى فخم الألفاظ الا الذي يشعر بأن فكره ضعيف فهو يريد أن يستر ضعفه بصورة شعرية ولكنه في الحقيقة لا يستر هذا الضعف وانما يكشفه ويفضحه .

واذا كان لا بد لنا من لغة شعرية في تفكيرنا فلنجعل هذه اللغة مناسبة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

لما تصوره من الأفكار على الأقل ، فاذا استعملنا لفظاً شعرياً فلنستعمله في المقام المناسب له حتى يعمل عمله في القلوب وحتى لا يضعف أثره فينقلب سخرية .

وأظن أن كلام الله وحده هو خير مثل لذلك ، فان الله عزّ وجل اذا قال : اذا زلزلت الأرض زلزالها ، فأي شيء أشد من هذه الحركة ، ولا ريب في أن هذه الحركة تستوجب لفظاً يستطيع أن يصورها على حقيقتها ، وليس في اللغة على ما أظن لفظ أشد مناسبةً من هذا اللفظ : الزلزال ولذلك كان لهذه الصورة الشعرية عمل في القلوب ، وليتصور الانسان كيف يضعف تأثير هذا اللفظ العظيم اذا استعمله الانسان في موطن ضعيف للدلالة على فكرة ضعيفة كفكرة اضطراب ورد أو ياسمين ، فاذا قلنا : اذا زلزل الورد أو الياسمين ، فكيف تكون نتيجة هذا اللفظ .

اني لا أكتب مقالاً في البلاغة ، وإنما خلاصة ما ذهبت اليه في هذا المقال انا كثيراً ما نضعف تفكيرنا وشعورنا بلغتنا الشعرية لأنا نضع هذه اللغة في غير مواضعها ، ففي كثير من المقامات يلزمنا أن نعرض أفكارنا في حقائق معارضها ، حتى تكون القوة من قوتها نفسها لا من قوة ألفاظها الزائفة ، واذا احتجنا الى اللغة الشعرية فليكن شيء من التناسب بين الصورة وبين اللون الذي نلوّن به هذه الصورة ، وبعبارة أوضح فلنكن أقرب من الحياة الواقعة ، فقد طال إمعاننا في البعد عن هذه الحياة .

شفيق جبري

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net